الجائزة

ما كان ليصدق نفسه حين مسَّت البشرى شغاف قلبه، وعزف الخبر على أوتار مسامعه، لولا أن رأى زملاءه يهرعون إليه ، تتلألأ بالفرحة أعينهم ، وتشرق بالبهجة أسارير وجوههم، وتلهج بالتهنئة ألسنتهم ، وتبارك في غبطة أيديهم الممدودة للمصافحة..!

اغرورقت بالدموع عيناه اللتان طالما تطلعتا في شوق ذائب إلى هناك ، واخضوضرت روحه المقفرة التي أمضّها الشوق واللهفة إلى السقيا من غيث تلك البقاع النورانية المقدسة.

ساءل نفسه في دهشة :

ـ أحقاً ما سمعت ؟! أفي يقظة أنا ؟ أم في أحلام الكرى؟! أبهذه البساطة يتحقق حلم كنت أظنه بعيد المنال ؟! كم أنت عظيم يا إلهي ..!! كم أنت كريم ورحيم بعبادك..!!

خر ساجداً شاكراً لأنعم ربه .. غاب عن الوجود حيناً من الوقت .. مستغرقاً في سجوده يتمتم بدعوات كأنما أعدها لمثل هذا اليوم ، أفاق من نشوة عبادته ليجد زملاءه قد انفضوا من حوله، وعاد كل إلى عمله ، كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر .. أدرك أن فترة خدمته قد انتهت ، لم يترك موطن العمل إلا بعد أن اطمأن من وجود من ينوب عنه في الخدمة، استأذن في الدخول على المأمور ليشكره على عظيم معروفه؛ إذ كان سبباً مباشراً في ترشيحه لهذه المنحة الكبرى والجائزة العظمى.

قال بعد أن أدى التحية ، والسعادة ترقص على أسارير وجهه:

ـ أشكرك يا سيدي .. صنيعك هذا لن أنساه ما حييت ..!!

اعتدل المأمور في جلسته ، ثم قال وعلى ثغره ابتسامة هادئة:

ـ ليس لي فضل أيها الرجل الطيب في هذه المنحة ، إنما الفضل لله الذي وفق مدير الأمن لاختيارك ، ثم لك لأنك بالفعل تستحقها، وأجدر الناس بها ، وإلا لما اختارك الله لزيارة بيته ..!

ـ أحقاً يا سيدي أن هذه الرحلة علامة على محبة الله لي ورضائه عني ؟!

ـ وهل تشك في ذلك ؟! أنت رجل طيب محبوب من رؤسائك وزملائك، ومجتهد في عملك، وتتقي الله في سلوكك، فلم لا تكون هذه الجائزة علامة رضا ومحبة من الله لك؟!

ـ أشكرك يا سيدي فلولاك ما تحقق حلمي .

ـ بل اشكر الله الذي وفقك إلى حسن طاعته يا حاج "مصطفى" .

أدى التحية ثانية واستأذن في الخروج ، لعله يطير إلى أهله فيثلج صدورهم بهذا النبأ السعيد، مضى في طريقه يحث الخطى ويقول في نفسه :

ـ لقد جاءت الجائزة في الوقت المناسب، لَكَمْ تمنيتها، ولَكَمْ دعوت الله أن يمن عليّ بها..!! وها هو الأمل المرجوّ يتحقق ، وها أنا ذا على مشارف الرحلة إلى الأرض المقدسة.. إلى الرحاب الطاهرة .. إلى البيت العتيق.. إلى مثوى الرسول الأعظم .. إلى مهبط الوحي ومبعث النور .. إلى مهوى الأفئدة والأرواح .. إلى حمى اللائذين والعائذين..!!

أشكرك يا إلهي على كل نعمة أنعمت بها عليّ، وأوليتني إياها .. لك الحمد يا وليّ النعم..!

وصل البيت في خفة النسيم، ورشاقة العصافير، وقلبه مفعم بالبهجة ، ووجهه مشرق بالغبطة.. تلقّت العائلة البشرى الندية

بقلوب ظامئة إلى السعادة ، فوقع الخبر من نفوسهم موقع الماء من ذي الغلة الصادي ، تلألأ البيت بأضواء الفرح ، وانتصبت في سمائه سحائب الرضا، وقناديل الهناء.

أحس برغبة ملحة في أن يخلو إلى نفسه بعضاً من الوقت ، دخل حجرته ، استلقى على سريره، ألقى بنفسه في مهب رياح الذكريات عساها أن تحمله إلى بعيد .. حيث الطفولة البريئة والصبا الناضر، والشباب المزهر .. هنالك تداعت إلى رأسه الذكريات، ولاحت لعيني خياله صورة الماضي الأليم ، تذكر يوم أن تركه شقيقه الأكبر في موقف عصيب ، راحلاً إلى بلاد بعيدة.. هارباً من كل التزام.. متنصّلاً من كل مسئولية تجاه أسرته.

كان "مصطفى" آنذاك طالباً في المرحلة الإعدادية يحتاج إلى من ينفق عليه ، فضلاً عن والديه المريضين اللذين كانا في أمس الحاجة إلى الرعاية والحماية .. آثر والديه على نفسه.. لم يجد بدا من ترك التعليم والبحث عن عمل يعينه على مسئوليته الجديدة .. اجتهد وبذل ما في وسعه من جهد ، كان حريصاً ألا يدخل بيته مثقال ذرة من حرام ..!

دبت الحياة من جديد في أوصال الوالدين ، وأُبْرِئَ كلاهما من مرضهما ، وتطلع الشاب الوقور إلى الزواج ، لكنه بسبب ضيق ذات اليد من جهة، ورغبته في التقرب إلى الله من جهة أخرى آثر الزواج من امرأة أرملة معها طفلان لم يتجاوز أكبرهما الخمس سنوات .

غدا للطفلين أباً حنونا، ولأمهما زوجاً رءوماً ، ولوالديه ابناً بارّاً رحيماً، وعندما أنجبت له زوجه أبناءه الثلاثة لم يفرق في المعاملة بين أحد من أولادها الخمسة ، ظلت السعادة ترفرف بجناحيها حول هذه المملكة الصغيرة حتى أشار عليه بعض قرنائه بضرورة الالتحاق بوظيفة حكومية، فلم يجد أمامه سوى وزارة

الداخلية ، قدم مسوغات تعيينه ، وما هي إلا أسابيع قلائل حتى تسلم عمله كشرطي في إدارة المرور.

بدت الحياة في ظل الوظيفة كئيبة ، الراتب الشهري يلفظ أنفاسه الأخيرة في اليوم العاشر من كل شهر ، كل ضرورات البيت من اليوم العاشر إلى آخر الشهر على النوتة .. لفحته الحياة بهجيرها وسعيرها ، ولطمته بشظفها وقحطها حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وما أشد ألمه حين يرى ابناً من أبنائه يتطلع إلى ما في أيدي أولاد الجيران ثم لا يجد إلى الوصول إليه سبيلا ، كم تاقوا إلى اللحم وإلى أنواع عديدة من الفاكهة بيد أن راتبه لم يسعفه في تحقيق مآربهم، فلا يملك حينئذٍ إلا أن يوصيهم بالصبر.

زاره أحد زملائه ذات مرة فرأى شظف العيش ، ومرارة الحرمان يضربان بأطنابهما في البيت، فسأله في عتاب :

ـ ما هذه الحياة الجدباء التي تعيشها يا صديقي ؟!

أجابه ـ وفي حلقه غصّة ، وفي صدره تغلي مراجل الحزن والأسى ـ :

ـ إنها الحياة في ظل الوظيفة يا صديقي .. لو تعلم كم فكرت في ترك العمل الحكومي الذي ما ذقت من ورائه سوى البؤس والشقاء والحرمان .

ـ وماذا تعمل بعد أن تترك وظيفتك؟

ـ أعمل في القطاع الخاص ..!

ـ وماذا تعمل في القطاع الخاص ؟ بائعاً في أحد المتاجر ؟ خفيراً على إحدى العمارات؟! أم عاملاً في المعمار ؟ كل هذه الأعمال لا تليق بك ، ستكون خادما وعبدا لكل من يوليك نعمته، أما أنت في وظيفتك فسيد نفسك ، وهب أنك مرضت هل أصحاب هذه الأعمال يستطيعون أن يتحملوك في مرضك ؟ إنهم لا يعرفون الرجل إلا إذا

كان بكامل قوته أما إذا مسّه نصب أو وصب تنكروا له ، وربما تخلصوا منه ، ونفضوا من سيرته أيديهم .

ـ كلامك صحيح ، ولكن....!

قاطعه في حزم:

ـ ليس هناك لكن .. إن في يديك ثروة يجب أن تحسن استغلالها.

ـ كيف ؟!

ـ لا عليك .. ولكن موعدنا الليلة بعد العشاء عندي في البيت لأشرح لك كيفية استغلال هذا الكنز.

مضى الضيف إلى بيته تاركا زميله يفكر فيما دار بينهما من حديث ، وفي الليلة التالية ذهب "مصطفى" إلى بيت زميله ، وبعد تجاذب لأطراف الحديث فيما بينهما فهم "مصطفى" أن ثمة خدمة ليلية أجرها كبير ، وعليه أن يستثمر طاقته ويعد نفسه لهذه الخدمة الليلية مع زملائه.

وفي ليلة جفا سماءها القمر، وتجهمت في فضائها النجوم ، خرج "مصطفى" مع ثلاثة من زملائه يرتدون زيهم الحكومي ، وقد أقنعوه بأنهم في عمل رسمي ، وبسبب من طيبته البادية في سيمائه ، وسذاجته المعهودة عليه صدقهم ، وبذل ما في وسعه لإرضائهم حتى يأخذوه معهم كل ليلة .. نصبوا أمتعتهم ووسائلهم على الطريق في موضع خلا من العمران ، وطفقوا يوقفون السيارات القادمة من القاهرة والمتجهة صوب الإسكندرية .. ظن السائقون بأنها لجنة مرورية تبحث عن المخالفات ، وكان على المخالفين منهم أن يبسطوا إليهم أيديهم بما فرض عليهم من إتاوات أو إكراميات ، وإلا سحبت منهم رخص القيادة ورخص السيارات وحررت ضدهم مخالفات لا حصر لها .

بعد منتصف الليل انتهت خدمتهم المزعومة ، وعادوا أدراجهم بعدما تقاسموا فيما بينهم حصيد ليلتهم ، آب كل طائر إلى وكره في هدوء كأن شيئاً لم يكن .. رجع "مصطفى" إلى بيته في تلك الليلة منشرح الصدر ، قرير العين ، واثق الخطى .. ولم لا؟ ألم يكن نصيبه في ليلة واحدة يفوق راتبه الشهري ..؟!

تعاقبت الليلات ، وتوالت الخدمات .. وبات الرفاق لا يثبتون على طريق ، كل ليلة في مكان مختلف عما قبله ، بدا أثر الثراء عليهم وبخاصة زميلهم "مصطفى" الذي رقت حواشي بيته الجديب، وازدهرت مرابعه بعد قحط طال مكثه حتى كاد أن يأكل جدرانه، وفقر كاد يلتهم أهله.. نضرت الوجوه ، ولانت الأجساد ، وامتلأت البطون ، وناءت الثلاجة بما تحمله من ألوان اللحوم وأصناف الفاكهة الطازجة ، وانتصب التلفاز على منضدة فاخرة كبيرة، وازدهت الحوائط بألوانها الزيتية المبهجة..!

لم يعكر صفو هذه الحياة الناعمة المنسابة كخرير الجدول العذب إلا صرخة أطلقها ذات ليلة فيما هو خارج من حمام البيت ، هرع الجميع إليه فإذا به ملقى على الأرض وقد شُد إلى وثاقه لسانه فلم يعد قادراً على الكلام ، وتشنجت في لحظة أطرافه فلم يستطع الحراك ، تنقلوا به من طبيب إلى طبيب ، وتوالت الاستشارات ، لكن أحداً لم يستطع أن يشخص حالته فيما هو مفتحة عيناه ومصغية أذناه ، يرى ويسمع لكنه عاجز عن الوصف باللسان أو الإشارة .

في سكون الليل تهجع الأطيار ، وتنام أعين السمار ، وتهدأ الشوارع والطرقات إلا من زفرة حشرة ، أو مواء هرة ، أو نباح كلب يتردد صداه من بعيد في غياهب الدجى فيمزق بين الحين والحين حجاب الصمت البهيم .. لكنه ظل ساهراً مستيقظاً برأسه ، يصرخ من أعماقه كلما برّح به الألم ، ويضرع إلى ربه بلسان قلبه أن يكشف عنه ضره.

ظل طريح الفراش ستة أشهر حتى اضطرت العائلة إلى بيع أثاث البيت والأجهزة الكهربائية كالثلاجة والتلفاز والمسجل حتى الملابس الجديدة بيعت في سبيل معالجة رب الأسرة، ولكن دونما جدوى .

ذات ليلة أخذته سنة من النوم فرأى شيخا وقوراً ، ذا وجه مشرق ، ورأس مستدير ، وشعر أبيض ، ولحية بيضاء ، وعينين صافيتين لامعتين ، وفم عريض ، وأنف متناسق مع وجهه المستطيل يربت على كتفه في حنان ، ويقول :

ـ ها أنت توشك على التحرر من قيدك .

رد عليه بلهفة :

ـ من أنت ؟ وماذا تعني؟

ـ لقد أدخلت على أهلك مالا جمعته من غير حله ، فلن تبرأ حتى ينفق على مرضك مقدار ما جمعته .

ـ أي حرام تقصد ؟

ـ أنت تعرف ما أقصد ، سترد إليك عافيتك ولكن لا تعد إلى ما كنت عليه .

استيقظ "مصطفى" فإذا بصوت المؤذن يصدح بأذان الفجر ، فهب ناهضاً من رقدته ، وإذا بجسده يطاوعه ، قام واقفا وخرج من حجرة نومه متجها نحو الصالة فوجد في جسده خفة كأنما نشط من عقال، نادى على زوجه وأولاده كي يستيقظوا لصلاة الفجر فإذا بصوته قوي شجي ، فسجد شكراً لله .

استيقظ كل أفراد العائلة ، وأقبلوا إليه فرحين يهنئونه على شفائه .. قص عليهم قصته والرؤيا التي رآها في منامه ، حمدوا الله على نجاته من السقوط في هاوية الحرام ، ونصحوه بألا يخرج ثانية مع أولئك الرفاق حتى وإن عضهم الجوع ، وطحنهم الدهر بكلكله.

كان عليه أن يكيف حياته على قدر راتبه ، ويعيد الدفة من جديد إلى ما كانت عليه قبل الصعود إلى الهاوية ، تنازل عن كل الكماليات ، وأعانته على هذه الحياة العجفاء الخشنة زوج صبور ، تتقي الله في زوجها وأولادها ..!

مرض والده المسن فكان يقتطع من قوته وقوت أولاده كي يوفر له الدواء ، اشتاق أبوه ذات يوم صيفي قائظ إلى التفاح ، الحر شديد ، والرطوبة العالقة في الجو تكتم الأنفاس ، والفقر قيد في الرقاب ، ومذلة في النفس .. لم يستطع ألا يعده .. ذهب إلى عمله ، طلب سلفة على راتبه ، لكن رئيسه المباشر لم يوافق عليها لكثرة ديونه ..خرج من عمله في الثانية بعد الظهر متأففا ضجرا ، حزينا مكروباً ، كيف له أن يعود إلى أبيه خاوي الوفاض ؟! والإنسان في شيخوخته كطفل صغير لا يعرف الأعذار ، ركب الحافلة من عمله إلى بيته شارد اللب، مكروب النفس ، يقول في نفسه :

ـ لن أعود إلى البيت قبل أن أشتري التفاح لأبي، ولكن من أين آتي بثمنه؟ أيرضى أحد زملائي أن يقرضني بعد أن أبلغت عنهم، وكنت سببا في توقيع الجزاء على نفسي وعليهم؟

حقيقة أنا لم أفعل ما فعلت إلا من قبيل الحرص عليهم ، كل ما كان يهمني أن أحميهم من نفوسهم الجشعة الطاغية ، لابد أنهم راجعوا أنفسهم وحاسبوها وتبين لهم صدق نيتي ، ولكنهم قاطعوني في العمل فلو كانت نفوسهم صافية من جهتي ما قاطعوني ، إنهم يهربون مني كلما اقتربت منهم ، لا .. لن أذهب إليهم ، ولكن ما السبيل يا رب ؟ لقد أوصدت دوني الأبواب ولم يبق لي سوى بابك، فلا تردني خائباً ، تحدرت دمعتين ساخنتين على وجنتيه فأطرق برأسه كيلا يراه أحد ، ربت الشيخ الجالس إلى جواره على كتفه في حنان ، وقال في هدوء:

ـ هون عليك يا أخي ، ودع الأمر لله ..!

ثم مد إليه يده بمبلغ من المال ، وقال له :

ـ خذ هذا المبلغ ، وأحضر التفاح الذي طلبه أبوك ، ولا تيأسن من رحمة الله ..!

هنالك جحظت عيناه ، التفت إلى الرجل فإذا هو نفس الرجل الذي رآه في منامه في آخر ليلة من مرضه ، ألجم لسانه من هول المفاجأة ، وتسمّر في مقعده كأنما شُلّت من جديد جوارحه، غادر الشيخ مقعده في هدوء ونزل من الحافلة ، بعد لحظات تحركت أعضاؤه ، وانطلق لسانه ينادي على السائق يدعوه إلى الوقوف ، نزل بسرعة كي يلحق بهذا الرجل ليسأله من يكون ؟ وكيف علم بما جعله مهموما مكروباً ؟!

لكنه حينما نزل لم يجد أحداً أمامه على مرمى بصره في كل الاتجاهات ، وضع المال في جيبه واتجه إلى السوق ليشتري التفاح الذي طلبه أبوه ، وعاد إلى البيت والدهشة منقوشة على ملامح وجهه، يقول : ـ سبحان الله ..! قادر وغيره لا يقدر .

أحس ببرد اليقين يسري إلى قلبه ، وتسربلت نفسه بسربال الثقة ، وأيقن بأن الله معه، فتعلق قلبه منذ ذلك الحين بربه وأصبح لا يتوقف عن الدعاء لسانه، ولا ينقطع عن الذكر قلبه، ولا تسأم من العبادة روحه ..!

هدأت رياح الذكريات ، وانتبه من شروده على صوت الباب يقرع برفق ، التفت فإذا بزوجه الرءوم تطل عليه كأنها الشمس في وضاءتها، والبدر في صفائه، والنسيم العليل في رقته ، قطعت عليه خلوته لا لشيء إلا لتذكره باقتراب موعد صلاة المغرب.. هب من رقدته.. حياها بابتسامة حنونة ، وقام يتوضأ ، خرج لأداء الصلاة في المسجد منشرح الصدر، راضي النفس ، هانئ البال ، يجد في قلبه حلاوة الإيمان، سمع الإمام يقرأ قوله سبحانه وتعالى : (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا

لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) فانهمرت دموعه ، حتى إذا ما انتهى من صلاته خرج يقول في نفسه ويردد : ـ حقاً ، صدق ربي : (وما يعلم جنود ربك إلا هو ..!!) .

******